الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ومساهماته في التعليم والتربية

د. محمود عالم الصديقي*

يعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي علما من أعلام التعليم الحديث في مصر ورابطة وصل بين الفكر الإسلامي الشرقي والفكر الغربي في العلوم والتعليم والتربية. وولد الشيخ بقرية طهطا عام ١٨٠١م، وتلقى تعليمه الابتدائي في المدارس التقليدية فأجاد تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم أولا. ثم حفظ جميع المتون المتداولة في العقول والنقول، وتلمذ على أشهر علماء ذلك العصر.[١] ثم سافر إلى الأزهر وهو في السادسة عشر من عمره، فالتحق بالأزهر عام ١٨١٧م.[٢] واستمر في دراسته في الأزهر بجدية ومثابرة حتى تفوق على أقرانه مما أهله أن يكون من العلماء الذين ينتقلون من ميدان التلمذة والطلب إلى مجال التدريس في الأزهر نفسه الذي تعلم فيه. فصار أستاذا في الأزهر عام١٨٢٢م حتى عام ١٨٢٤م. وخلال تعليمه في الأزهر تلمذ على عدد من العلماء الأزهريين وحظي بعنايتهم وجذب انتباههم بعلمه وحرصه الشديد للعلم والتعلم والتعليم. وأشهرهم الشيخ حسن العطار.

والشيخ حسن العطار من العلماء الذين عملوا مع العلماء الفرنسيين إبان إقامتهم في مصر كمدرس اللغة العربية لهم، فاستفاد منهم الكثير. كما يقول علي مبارك في خططه: إنه "اتصل بناس من الفرنساوية، فكان يستفيد منهم

---

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، حرم كارغل، جامعة كشمير، خونبتانغ، كارغل، جامو وكشمير، الهند.

الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم في اللغة العربية."[٣] فشاهد بنفسه الانقلابات العلمية التي حققتها أوروبا مما ترك في نفسه تأثيرا قويا حتى أطلق الصيحة الشهيرة التي قال فيها: " إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها العلوم والمعارف ما ليس فيها."[٤] ولكن العطار لم يستطع أن يحول الأزهر إلى أداة تنهض بمهام هذا التغيير، بل الأزهر يقف موقف العداء في معارف جديدة وعلوم حديثة. فقرر الرجل أن يرعى كوكبة من الطلبة النابهين ويربيهم تربية جديدة تمكنهم من النهوض بالأمة المصرية من التخلف والتقدم إلى الرقي العلمي. فلما شاهد الشيخ حسن العطار في تلميذه البار الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي علامات بارزة وصفات حسنة. فانتخبه لتربيته الخاصة، وانفرد له حلقة الدروس في بيته وألقى عليهم محاضرات على ما وصلت إليه الأمة الفرنسية من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الإستفادة."[٥] وأودع ميله إلى العلوم العصرية مما أهله من أن يكون إماما للبعثة التي أرسلت إلى فرنسا عام ١٨٢٦م، ثم أن يكون إمام الشرق والعالم الإسلامي في العلوم والفنون فيما بعد. تقدم الشيخ العطار إلى محمد على، حاكم مصر، باقتراح أن يجعل تلميذه رفاعة إماما للبعثة التي كان بصدد إرسالها إلى فرنسا لتلقى العلوم والفنون. فقبل محمد على اقتراح الشيخ حسن العطار وانتخب تلميذه البار إماما وواعظا للبعثة التي أرسلها عام ١٨٢٦ إلى فرنسا. ثم جعله عضوا مستقلا لهذه البعثة المذكورة، وأوحاه الشيخ حسن العطار أن يتلقى التاريخ والجغرافيا والترجمة في باريس. وعند مغادرته إلى باريس قد أوصاه الشيخ حسن العطار أن يقيد في مذكرة كل ما يرى فيه فائدة للمصريين في فرنسا.

فتعلم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي في باريس العلوم الغربية بجد ومثابرة حتى كسب المهارة في الترجمة للعلوم الغربية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وقام بترجمة ١٢ كتابا أو فصولا خلال إقامته في باريس، وقدم تراجم

هذه الكتب الاثني عشر للجنة الاختبار في الامتحان النهائي. فقامت اللجنة بتقدير جهوده واطمأنت بقدرته على الترجمة من اللغة الفرنسية إلى العربية.[٦] وهذه الكتب المترجمة كانت تشمل جوانب من علوم التاريخ والتعدين والجغرافيا وعلم الاجتماع والهندسة والمدنية وفن القيادة العسكرية والقانون العام وفلسفة القانون والميثولوجيا اليونانية والصحة العامة وتقويم البلدان.[٧] وكذلك أنه سجل كل مشاهداته عاملا على نصيحة استاذه الشيخ حسن العطار في مذكرة طبعت باسم كتاب "تلخيص الإبريز في تخليص باريز" بعد عودته من الباريس إلى مصر عام ١٨٣٢م.

فكان الكتاب "تلخيص الإبريز في تخليص باريز" فاتحة عهد جديد في مجال التعليم والتربية والسياسة والاقتصاد والعمران والاجتماع بما حواه من تاريخ العلوم الغربية ونظام سياستها واقتصادها ونظام تعليمها. فإن الرجل قد سجل في كتابه هذا كل انجازات علمية حققتها أوروبا في نهضتها الحديثة وقد أحسن وصفها بأسلوب مثير على الاحتذاء بالحياة الغربية في نظام سياستها واقتصادها وتعليمها. ولم يسجل الرجل تطورات الغرب في العلوم والفنون فحسب، بل قام بالمقارنة بين الفكر الإسلامي العربي والفكر الغربي الفرنساوي، وربما حاول تطبيق الفكر الغربي على الفكر العربي بما أنه لا يخالف الإسلام. وكان يهدف وراء ذلك إلى حث المسلمين ولاسيما المصريين على احتذاء بالحياة الفرنسية في التعليم والسياسة والاقتصاد.[٨]

ومن المعلوم أن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي قد أفرد القول في العلوم الغربية ونظام تعليمها وطرق تدريسها بالتفصيل. ولم يهدف من وراء هذا إلا نشر العلوم الحديثة في مصر واتخاذ نظام التعليم الغربي لها. فكان الكتاب فاتحة عهد جديد في التعليم والتربية. وكان له دور قوي في فتح العقل المغلق وحث المسلمين ولا سيما المصريين على اقتطاف أثمار العلوم الحديثة والفنون

الجديدة. فمهد الكتاب أرض مصر لنشأة التعليم الحديث ولظهور المدارس الحديثة. هذا هو السبب نحن نشاهد أن محمد على قد يكثر من إنشاء مدارس جديدة إثر رجوع هذه البعثة عام ١٨٣٢م، والشيخ رفاعة رافع الطهطاوي يلعب دورا مهما في إرساء دعائم هذه المدارس وتثبيت كيانها مع المنهج الدراسي المشتمل على العلوم الغربية والعلوم الإسلامية. ففي عام ١٨٣٣م أنشأ محمد على معظم المدارس الابتدائية التي كانت تعرف ذلك الحين بـ " مكاتب المبتديان " والمدارس التجهيزية أو المدارس الثانوية والمدارس الخصوصية أو العالية. ومنها المكتب العالي الذي أنشئ عام ١٨٣٦م بهدف تعليم اليتامى والأطفال الآخرين، والمدرسة التجهيزية للطب التي كانت تعرف بـ "مدرسة المارستان" ذلك الحين، وكان يهدف إلى إعداد التلاميذ لدراسة الطب ومدرسة الصيدلة عام ١٨٣٠م تحت إشراف الطبيب اليسدري Alessedary وكان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي عضوا في شورى الأطباء، ومدرسة الولادة المنشأة عام ١٨٣٢م تحت إشراف الآنسة جوليت المتخرجة من مدرسة مولدات بباريس، ومدرسة الطب البيطري المؤسسة عام ١٨٢٨م تحت قيادة الطبيب البيطري "هامون" Hamont وبريتو Pretot. وكان المترجم في هذه المدرسة "ميخاني باجو" من الإيطاليا ومصحح الترجمة الشيخ مصطفى من الأزهر، ومدرسة المحاسبة عام ١٨٣٧م ومدرسة الإدارة الملكية ومدرسة الألسن عام ١٨٣٥م ومدرسة الزراعة عام ١٨٣٦م ومدرسة مهندسخانة ببولاق عام ١٨٣٤م ومدرسة الكيمياء عام ١٨٣١م ومدرسة الصناعة عام ١٨٣٥م ومدرسة المعادن عام ١٨١٤م.[٩]

وقد عين محمد علي أعضاء البعثة لعام ١٨٢٦ وأعضاء البعثات الآخرين الذين عادوا إلى مصر بعد تزودهم بالمعارف الجديدة والعلوم الحديثة والفنون الجديدة في مناصب التدريس والإدارة والترجمة وغيرها لهذه المدارس الحديثة وفقا لمؤهلاتهم العلمية واختصاصهم في العلوم والفنون. وقد لعبوا دورا مهما

في إرساء دعائم هذه المدارس حديثة العهد. ومن بينهم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي يحتل مكانة مرموقة في تثبيت كيان هذه المدارس ونشر العلوم الحديثة والفنون الجديدة في مصر تصنيفا وتدريسا. فقام إثر رجوعه بنشر ملاحظاته باسم " تخليص الإبريز في تخليص باريز، سابق الذكر. فأحدث الكتاب انقلابا علميا ومهد أرض مصر للظهور فيها المدارس المذكورة. وأيقظ في الشرقيين الوعي التعليمي. ثم إنه عُين مدرسُ الترجمة في المدرسة الفرنسية بمدرسة الطب، غير أنها ألغيت.[١٠] فقام بالإشراف على المدرسة التجهيزية المعروفة بـ " مدرسة المارستان، وعمل على تطوير مناهج الدراسة في مواد: الحساب والهندسة ووصف الكون "الفلك" والتاريخ الطبيعي والتاريخ الاجتماعي – القديم والحديث – والمنطق.[١١] ثم انتقل من المدرسة التجهيزية إلى المدرسة المدفعية عام ١٨٣٣م، وقام بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية. وله فيها رسالة مترجمة في الهندسة العادية. وهي من الرسائل التي كانت تدرس في المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا.[١٢]وفي غضون ذلك وقع وباء بالقاهرة، فسافر إلى قريته طهطا، وترجم بها مجلدا من جغرافية ملتبرون التي كان بدأ بتعريبها بباريس. ثم عاد إلى القاهرة، وقدمه إلى محمد علي. فنال إعجابه وتقديره.

مدرسة الألسن

ثم بدأ يخطط لإقامة مدرسة الألسن التي تكون أول نواة جامعة مصرية وتفي حاجات البلاد من خلال إعداد المترجمين والعلماء الأكفاء في الآداب العربية والآداب الغربية، وتساعد على نقل الأفكار الغربية ولتكون حلقة وصل للثقافة الشرقية والثقافة الغربية. فاقترح على محمد علي بإنشاء مدرسة الألسن، وقال له: "إنه يمكن أن ينتفع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل."[١٣] وكان

من مزايا محمد علي أنه يحسن تقدير الاقتراحات الحسنة والآراء السديدة التي تعود على البلاد بالخير والتقدم. فبادر إلى تنفيذ الاقتراح وأنشأ مدرسة الألسن بالقاهرة عام ١٨٣٥م -١٨٣٦م. وكانت تعرف في إنشائها بمدرسة الترجمة، ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن، وعهد نظارتها في السنة التالية إلى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي.[١٤]

وهنا ظهر نبوغ الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي في التعليم والتربية، وقام بإدارة هذه المدرسة خير قيام، وأعد لها منهجا دراسيا يشتمل على العلوم الإسلامية التي قرأها في الأزهر صدر شبابه والعلوم الحديثة التي تلقاها في باريس خلال إقامته فيها والتي ذكرها في رحلته " تلخيص الإبريز في تخليص الباريز". واختار لها خيرة التلاميذ من الأزهر والمدارس الأخرى. بلغ عددهم في بداية عهدها خمسين تلميذا، ثم زاد حتى صار ١٥٠ تلميذا. ويقال إن الشيخ رفاعة كان يرأس كل عام لجنة امتحان التلاميذ في مكاتب المبتديان بالأقاليم، فيسافر إليها لامتحان، ويأتي بالمتفوقين منهم إلى هذه المدرسة.[١٥] وكان يعني بتثقيف التلاميذ عناية كبيرة حتى قال عنه على باشا مبارك: "إنه ربما كان يعقد الدرس للتلاميذ بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير، ويمكث ثلاث ساعات أو أربع ساعات يلقي الدروس واقفا على قدميه في اللغة العربية أو فنون الإدارة أو التشريع الإسلامي والأجنبي."[١٦]ومازال يحاول بهذا الأسلوب البديع في تربية التلاميذ وتثقيفهم حتى تخرج عام ١٨٣٩ أول فريق من تلاميذ المدرسة. فعين بعض المتفوقين منهم كأساتذة للغة الفرنسية وبعضهم الآخر للغة العربية. وعين الآخرون منهم في مدرسة المهند سخانة ومنهم من عين ببعض المدارس الأخرى وبالمصالح الحكومية المختلفة. وكان شرط الترقي لأي منهم هو ترجمة كتاب من الكتب التي يختارها رفاعة ويشرف على مراجعتها، ثم يدفع بها إلى مطبعة بولاق[١٧]. فمازالت المدرسة تخدم البلاد خدمة جليلة من إعداد العلماء الأكفاء والمترجمين البارعين ممن

إزدان بهم تاريخ النهضة العلمية والتعليمية والنهضة الأدبية.[١٨]

وكانت هذه المدرسة بمثابة جامعة عصرية حيث كانت تدرس آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية من الفرنسية والتركية والفارسية ثم الإيطالية. وكذلك يدرس فيها علوم التاريخ والجغرافية والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية والحساب. وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات، وقد تزداد إلى ست. وكان الشيخ رفاعة يدرس الطلاب اللغة العربية واللغة الفرنسية وآدابهما والشرائع الأجنبية والشرائع الإسلامية.[١٩] وكان يعاونه طائفة من علماء الأزهر، وذكر أسماءهم على مبارك باشا في خططه وهم: الشيخ محمد الدمنهوري والشيخ علي الفرغلي الأنصاري والشيخ حسنين حريز الغمراوي والشيخ محمد قطة العدوي والشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوي، وثلاثة أساتذة من أوروبا يعينونه في تدريس اللغة الفرنسية والرياضة والتاريخ والجغرافيا وهم: سيوكوت وتبيير وديزون.[٢٠]

أقسام المدرسة

في سنة ١٨٤١م نقلت المدرسة التجهيزية من أبي زعبل، والحقت بمدرسة الألسن. وفي عام ١٨٤٤م انشئ لمدرسة الألسن "الإدارة الملكية العمومية ليعمل خريجوه في المديريات والمصالح والضابط خانة. ثم أنشئ بها قسم لدراسة الإدارة الزراعية الخصوصية عام ١٨٤٧م.[٢١] كما أنشئ قلم للترجمة عام١٨٤١م كمجمع متخصص في الترجمة، وخصصه الشيخ رفاعة إلى أربعة أقسام: (١) قسم لترجمة الرياضيات، ويرأسه محمد بيومي الأفندي، (٢) قسم لترجمة العلوم الطبية والطبيعية، ويرأسه مصطفى واطي أفندي (٣) قسم لترجمة العلوم الاجتماعية من التاريخ والقصص والقوانين والجغرافيا، ويرأسه خليفة محمود أفندي، (٤) وقسم لترجمة التركية وكان يرأسه ميناس أفندي. وكل هذه

الأقسام كانت مزودة بالمبيضين ومترجمين مساعدين.[٢٢] فله دور مشكور في نقل الثقافة الغربية إلى اللغة العربية. هذا هو السبب اعتبر فريد عبد الرحمن هذه المدرسة أول جامعة مصرية.[٢٣]

وفي أواخر ١٨٤٧م أنشئ بها قسم لدراسة العلوم الفقهية. وكان عدد تلاميذها أربعين ويتلقون دروسا في الفقه على المذهب الحنفي، وعندما أتموا دراساتهم عينوا قضاة بالأقاليم التي يعين فيها قضاة من متخرجي الأزهر والمدارس الأخرى قبل إنشائها. فكان القسم بمثابة كلية الشريعة والقانون.[٢٤]

فكانت مدرسة الألسن ملتقى بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية. وشاهد التاريخ في مصر أول مرة الامتزاج بين الأفكار الإسلامية والأفكار الغربية في المنهج الدراسي المتبع في مدرسة الألسن. فيدرس فيها الطلاب الفقه الإسلامي والشرائع الأجنبية وكذلك يدرسون التاريخ الإسلامي مع تاريخ العالم، وكذلك يدرسون اللغة العربية مع اللغات الأوروبية من الفرنسية والإيطالية والإنجليزية. وبها قد دخل التعليم في مرحلة جديدة من محاولة الإصلاح والتجديد في المؤسسات التعليمية الحديثة والمؤسسات التعليمية التقليدية كالأزهر. وبذلك يعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي رائدا من رواد الإصلاح والتجديد في تعليم المسلمين في مصر.

الهوامش:

١. صالح مجدي، "حلية الزمن" بمناقب خادم الوطن، سيرة رفاعة رافع الطهطاوي، ص ٢٠، ص ٢١
٢. الدكتور محمد عمارة: رافة رائد التنوير، ملخص من ص ٤٠ إلى ص٤٤
٣. على مبارك، "الخطط الجديدة، ج٤، ص٣٨،
٤. نفس المصدر، ج٤، ص ٣٨
٥. نفس المصدر، ج٤،٣٨

٦. الأمير عمر طوسون، البعثات العلمية في عصر محمد علي، ص ١٧٤
٧. تخليص الإبريز في تلخيص الباريس، ج٣، ص ٤١٦
٨. أنور الجندي، الأعلام وأصحاب الأقلام، دار نهضة، مصر، ص١٦٢. وتخليص الإبريز في تلخيص الباريز، ج١، ص ٤٥
٩. أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، من ص١٥٥ إلى ص٢٥١،
١٠. محمد شفيق الغربال، عصر محمد علي، ص ٤٣٩
١١. الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، تلخيص الإبريز في تلخيص الباريز، ج٣، ص٤١٧
١٢. عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص ٤٣٩
١٣. د. عمارة، رائد التنوير في مصر، ص ٧٠
١٤. نفس المصدر، ص ٤٤٠،
١٥. أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، ص٣٣٤
١٦. على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١٣، ٥٤
١٧. دكتور: عمارة، رائد التنوير رفاعة في مصر، ٧٠
١٨. عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص ٤٤٠،
١٩. نفس المصدر، ٤٤٠
٢٠. أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، ص ٣٣٣
٢١. د. محمد عمارة، رائد التنوير رفاعة في مصر،٧٢
٢٢. أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، ص ٣٤٢
٢٣. أنظر: فريد عبد الرحمن، حلية الزمن، ص ٣٧
٢٤. د. محمد عمارة، رائد التنوير رفاعة في مصر،٧٢

* * *